جامعة الأزهر
كلية أصول الدين
والدعوة الإسلامية بالمنوفية

التفسير والتدبر،
والحدودُ الفاصلةُ بينهما

الدكتوره

صفاء عبد الرحيم برعي

قسم الدراسات الإسلامية
كلية الآداب - جامعة سوهاج - سوهاج

التفسير والتدبر، والحدودُ الفاصلةُ بينهما

صفاء عبد الرحيم برعي

قسم الدراسات الإسلامية، كلية الآداب، جامعة سوهاج، سوهاج.

البريد الإلكتروني: safaaborai2@gmail.com

الملخص

هذه الدراسة عن موضوع من موضوعات القرآن الكريم، ألا وهو تفسير القرآن وتدبره، وبيان العلاقة بينهما؛ وذلك لما قد يبدو من التداخل بين الموضوعين، الأمر الذي قد يدعو البعض إلى الابتعاد عن فهم القرآن الكريم وتدبره؛ خشية الوقوع في الخطأ، والقول على الله بغير علم. ولذلك تهدف تلك الدراسة إلى بيان الفرق بين العلمين، وأنه وإن كان كلًا منهما متعلقٌ بفهم النص القرآني إلا أنه هناك خيطٌ دقيقٌ فاصلٌ بينهما، فالتدبر هو الاتعاظ بما تحمله الآيات من معاني، فهو عمليةٌ قلبيةٌ تسيطر على الشخص، وتملك عليه وجدانه، ولكنه يأتي بعد فهم الآيات القرآنية وإدراكها والإحاطة بها، بينما التفسير هو توضيح مَعَاني الْقُرْآن الْكَرِيم وَمَا انطوت عَلَيْهِ آيَاته من عقائد وأسرار وَحكم وَأَحْكَام، فلابد للمفسر من تحصيل عدة علوم حتى يكون مفسرًا، بينما التدبر يكفي فيه معرفة المعنى الإجمالي الكلي للآيات، فالتفسير للعالم المجتهد المتخصص، بينما التدبر لا يشترط أن يحصله المفسر المتخصص، وإنما يكفي معرفة المعنى الإجمالي الكلي للآية والآيات، ولذا قد يكون المفسر متدبرًا، بينما لا يكون المتدبر مفسرًا، إلا إذا انطبقت عليه شروط المفسر، ولذا يجب علينا عدم التهيب من الإقدام على قراءة القرآن الكريم وسماعه وتدبر آياته والتفكر فيها، ومعايشتها قلبًا وقالبًا.

الكلمات المفتتاحية: التفسير، التدبر، تدبر السلف، تفسير السلف، شروط التفسير، ضوابط التدبر.

The interpretation and contemplation of the Qur'an, and the explanation of the relationship between them

Safaa Abd El-Raheem Boraie
Islamic Study Department – Faculty of Arts – Sohag University - Sohag
E mail: safaaborai2@gmail.com

Abstract

This study is about one of the topics of the Noble Qur'an, namely the interpretation and contemplation of the Qur'an, and the explanation of the relationship between them. This is due to the apparent overlap between the two topics, which may invite some to move away from understanding and contemplating the Noble Qur'an. Fear of making mistakes, and saying God without knowledge. Therefore, this study aims to clarify the difference between the two sciences, and that although both of them are related to the understanding of the Qur'anic text, there is a fine line separating between them, so contemplation is to learn what the meanings of the verses carry, as it is a heart process that controls a person and takes possession of his conscience, but it comes after Understanding the Qur'anic verses, comprehending and surrounding them, while the interpretation is to clarify the meanings of the noble Qur'an and the beliefs, secrets, wisdom, and judgments that it contained in it. Contemplation is not required for the specialized interpreter to obtain it, rather it is sufficient to know the total meaning of the verse and the verses, and therefore the interpreter may be deliberate, while the one who is considered is not an interpreter, unless the conditions of the interpreter are applied to him. Therefore, we must not be intimidated by reading and listening to the Noble Qur'an, contemplating its verses, thinking about them, and experiencing them heart and soul.

Keywords: Interpretation, contemplation, contemplation of advances, interpretation of advances, Conditions of interpretation, controls for reflection.

مُقَدِّمَةٌ

إن الحمدَ لله الذي استنارت صدورُ الصُّحف باسمه، وأشرقَتْ سطورُ الكتُب بوَصْفه فيها ورَسْمه، وكانت البدأةُ بحمده كافلةً بالتمام، ضامنةً بلوغ الغاية فيما يُراد من الأمور ويُرام.

أحمده مستعينًا به على تيسير ما أحاوله، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهدُ أن محمَّدًا (ﷺ) عبدُه الذي بعثه رحمةً لعباده، ورسولُه الذي اتضحت السُّبلَ بهدايته.

هذا وإن أجل ما بأيدي هذه الأمة كتابُ ربِّها، الناطق بمصالح دينها ودنياها، الواصف لها مراشد أُولاها وعقباها، ولهذا فإن من أجل العلوم قدرًا هو العلم المتعلق بأشرف الكلام وأجله، وهو علم التفسير؛ إذ إن المشتغل به آخذ بروح التلاوة ولبها، ومقصودها الأعظم، الذي تُشرح به الصدور، وتستنير بضيائه القلوب، كمـــا قال تعالي:﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[1]، كما أن الاشتغال به تحصيلًا لمنافع الدنيا والآخرة.

فالقرآن الكريم كتاب روح وحياة، وهو النورُ والضياء، وهو الشفاءُ والدواء، هو كتابُ العقيدةِ والإيمان، وكتاب العبادة والطاعة، والفقه والأحكام، هو كتاب المسلمين ودستورهم ومنهاجهم وقائدهم ورائدهم، فإذا أقبل عليه المسلمون بصدق وإخلاص، وعزيمة واجتهاد ومجاهدة نجوا من المهالك، وتحركوا بوعي وثبات، دون تخبط أو انحراف، وهذا الإقبال لابد أن يكون بفهم تام، وتدبر صحيح لمعاني القرآن الكريم، وهذا هو منهج السلف الصالح الذين اعتنوا بفهم

(١) [ص: آية٢٩].

القرآن وتدبره، فلم يكتفوا بالحفظ فقط، بل كان سعيهم لفهمه وتدبره، فجموا العلم والعمل جميًعا، ولذلك كانوا أمناء على القرآن الكريم.

ومما لا شك فيه أن تدبر كلام الله وفهمه وتفسيره هو من خير العلوم وأشرفها وأعلاها منزلة، ولقد حثنا الله تعالى على وجوب تدبر كتابه، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾(١)، وفي موضع آخر:﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾(٢)، لذا فإن من أصغى إلى كلام الله وكلام رسوله بعقله، وتَدَبَّره بقلبه، وجد فيه من الفهم والحلاوة والبركة والمنفعة ما لا يجده في شئٍ من الكلام لا منظومه ولا منثوره.

ولكن ما نراه في تلك الأيام إعراض الكثيرين عن مدارسة كتاب الله أو حتى تلاوته، ويرجع ذلك إلى أحد سببين: الأول: الانشغال بأمور أخرى في ظل هذا العصر، وعدم الاهتمام بالقرآن الكريم، فلا يرجع إليه كثيرًا. والسبب **الثاني:** الخشية من الإقبال على تدبر كلام الله ومحاولة فهمه، خشية الاجتراء والوقوع في الخطأ، فيكون من الذين يقولون في القرآن بغير علم. بل وفوق ذلك فإنهم يسخرون ممن يُقدم على تدبر القرآن تحت ذريعة الورع والتقوى، وهو بذلك حرم نفسه من نور القرآن، و كذلك قطع الطريق على غيره. ولذلك لابد وأن يكون هناك ضوابط حتى لا يقع الشخص في مثل تلك الاجتراءات، وبذا لا يتهيب من الإقبال على كتاب الله وتلاوته ومدارسته، وفهمه، وتدبره، والاتعاظ به.

---

(١) [محمد: آية٢٤].

(٢) [النساء: آية٨٢].

والتدبر يستلزم النظر،والتأمل، وإعمال الفكر، وبذل المجهود؛ لمعرفة دلالات الألفاظ، ومراميها، ومقاصدها.

ومع ذلك فإنه يجب أن نتنبه إلى أن التفسير غير التدبر، على الرغم من أن كلاهما يسعيان إلى تحقيق هدف واحد، وهو خدمة النص القرآني، من حيث فهم النص وإدراكه، ومن ثم العمل به عن بصيرة وبينه، إلا أن التدبر يتطلب النظرة العامة بإعمال الذهن والفكر، بينما التفسير يستوجب نظرة أكثر عمقًا في الدقائق، مع الإحاطة بعلوم أخرى ضرورية للتفسير، فليس كل أحدٍ مؤهل للإتيان بالتفسير، ولكن كيف ذلك؟ ولبيان ذلك نتناول نماذج من التدبر ومن التفسير.

ولربما من يتهيبون الإقدام على كتاب الله، لظنهم أن التفسير هو عين التدبر، وليس الأمر كذلك، فالتفسير هو إعمال للقوة العلمية، أي لابد من يُقدم عليه أن يكون مؤهلًا بضوابط علمية، بينما التدبر إعمال للقوة العقلية، فهو الاتعاظ والاعتبار بالمعاني، ومعرفة دلالاتها وأهدافها وغير ذلك.

ويقول ابن القيم (رحمه الله): "لو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبر لاشتغلوا بها عن كل ما سواها، فإذا قرأة بتفكر حتى مر بآية هو محتاج إليها في شفاء قلبه كررها ولو مائة مرة، ولو ليلة، فقراءة آية بتفكر وتفهم خير من قراءة ختمة بغير تدبر وتفهم، وأنفع للقلب، وأدعى إلى حصول الإيمان، وذوق حلاوة القرآن، وهذه كانت عادة السلف يردد أحدهم الآية إلى الصباح، وقد ثبت عن النبي (ﷺ) أنه قام بآية يرددها حتى الصباح، وهي قوله تعالى: "إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم"[1].

(١) مفتاح دار السعادة، ابن القيم، ٥٥٣/١.

أسباب اختيار الموضوع:

يرجع السبب في اختيار الموضوع إلى إبراز الفرق بين التفسير والتدبر؛ نظرًا لهذا التداخل الكبير بينهما، وما قد يقع من إشكال بين اللفظين، مما قد يؤدي إلى ابتعاد البعض عن تدبر القرآن وتعقله وتفهمه، لأسباب عدة، وكذلك الإشكال في من هم المخاطبون بكلا اللفظين.

منهج البحث:

يعتمد البحث على المنهج الاستقرائي بتتبع كتب التفسير وعلوم القرآن، وما كُتب عن موضوع التدبر، لاستنباط الفرق بينه وبين التفسير.

الدراسات السابقة:

من الدراسات التي تناولت موضوع التدبر:

- تدبر القرآن، تأليف: سليمان بن عمر السنيدي، ط٢، ١٤٢٣هـ.
- التدبر حقيقته وعلاقته بمصطلحات التأويل، والاستنباط، والفهم، والتفسير- دراسة بلاغية تحليلية، تأليف: د. عبد الله عبد الغني سرحان، الرياض، ط، ١٤٣٠هـ.
- تدبر القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق، تأليف: د. رقية طه جابر العلواني، ط٤، ٢٠٠٨م.
- بحث بعنوان: "مهارات التدبر التطبيقية" لمحمد بن عبد العزيز العواجي، المنشور بمجلة تدبر، العدد الرابع ٢٠١٨م.

غير أن دراستنا هذه تُعني ببيان الفرق الدقيق بين التفسير والتدبر؛ لإزالة اللبث والإشكال، ورفع الحرج عن غير المتخصصين في تورعهم وخشيتهم من الإقدام على فهم القرآن وتدبره؛ لظنهم أنه يتطلب التسلح بالإمكانيات العلمية فقط، كما سنرى.

إشكالية البحث:

يعالج البحث مشكلة تفسير القرآن الكريم وتدبره، ومتى يمكن أن نُعد هذا الفهم تفسيرًا للقرآن، ومتى نُعده تدبرًا.

حدود البحث:

تمثلت حدود البحث في الدراسة النظرية، ببيان معنى التفسير وكذا التدبر، ثم شروط كلًا منهما، ومن المقصودون بخطاب التفسير والمقصودون بخطاب التدبر؟ ثم لبيان الفرق الدقيق بين الإتيان بالتفسير والإتيان بالتدبر عرجت إلى الدراسة التطبيقية بعرض نماذج على تفسير سلفنا الصالح، وعلماءنا الأجلاء، وكذلك تفكرهم وتدبرهم للقرآن الكريم.

خُطة البحث: يحتوي البحث على:

مقدمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة، وهي كالتالي:

أولًا: المقدمة، وفيها:

أسباب اختيار الموضوع.

منهج البحث.

الدراسات السابقة.

إشكالية البحث.

حدود البحث.

خطة البحث.

ثانيًا: مباحث البحث: وهي كما يلي:

المبحث الأول: التعريف بالتفسير والتدبر وأهمية كلٍ منهما. وينقسم إلى مطلبين:

- **المطلب الأول:** التعريف بالتفسير والتدبر لغة واصطلاحًا.
- **المطلب الثاني:** أهمية كلٍ من التفسير والتدبر.

المبحث الثاني: الضوابط التي تعصم من الإجتراء في فهم القرآن الكريم. وينقسم إلى مطلبين:

- **المطلب الأول:** عن شروط التفسير.
- **المطلب الثاني:** عن شروط التدبر.

المبحث الثالث: نماذج من تفسير القرآن الكريم وتدبره. وينقسم إلى مطلبين:

- **المطلب الأول:** نماذج من تفسير القرآن الكريم.
- **المطلب الثاني:** وقفات تدبرية مع آيات الذكر الحكيم.

ثالثًا: الخاتمة: وفيها:

- النتائج التي تم التوصل إليها.
- التوصيات المقترحة.

المبحث الأول

التعريف بالتفسير والتدبر وأهمية كلٍ منهما

وينقسم إلى مطلبين:

المطلب الأول: التعريف بالتفسير والتدبر لغة واصطلاحًا.

المطلب الثاني: أهميةُ كلٍ من التفسير والتدبر.

المطلب الأول

التعريف بالتفسير والتدبر لغة واصطلاحا

أولا: تعريف التفسير لغة واصطلاحا:

(أ) التفسير في اللغة

النفسير من الفسر، وهو البيان والكشف، ومنه فَسَرْت الذراع: إذا كشفتها، وفسَّرت الحديث: إذا بينته[1]، وبذلك فإن اللفظة تستعمل في الكشف الحسي، وكذلك في الكشف المعنوي؛ ولذلك سُمي كتاب الله تفسيرًا؛ لأنه يكشف اللثام عن المعاني اللغوية والتفسيرية، وذلك باستخدام قواعد التفسير المعروفة عند أهله.

(التّفْسِير) هو الشّرْح وَالْبَيَان، وَتَفْسِير الْقُرْآن من الْعُلُوم الإسلامية يقْصد مِنْهُ توضيح مَعَاني الْقُرْآن الْكَرِيم وَمَا انطوت عَلَيْهِ آيَاته من عقائد وأسرار وَحكم وَأَحْكَام[2].

(١) معجم مقاييس اللغة، أحمد ابن فارس بن زكرياء القزويني، مادة (فسر)، ٥٠٤/٤.

(٢) المعجم الوسيط، (إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجـــار)، ب: الفاء، ٦٨٨/٢.

(ب) التفسير في الاصطلاح:

معنى التفسير في الاصطلاح ينطلق من معناه اللغوي الذي هو البيان والكشف، وكما عرفه أبو حيان التوحيدي: "هو العلم الذي يبحث عن كيفية النطق بألفاظ القرآن الكريم، ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب، وتتمات لذلك"(١).

كما عرفه الزركشي بأنه: "علم يعرف به فهم كتاب الله تعالى، المنزل على نبيه محمد (ﷺ)، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه»(٢).

وقد شرح الزرقاني هذا التعريف شرحًا وافيًا، فقال: « وسُمى علم التفسير لما فيه من الكشف والتبيين، واختص بهذا الاسم دون بقية العلوم- مع أنها كلها مشتملة على الكشف والتبيين- لأنه لجلالة قدره، واحتياجه إلى زيادة الاستعداد، وقصده إلى تبيين مراد الله من كلامه، كان كأنه هو التفسير وحده، دون ما عداه»(٣).

ثانيًا: تعريف التدبر لغة واصطلاحًا:

أ) التدبر في اللغة

الكلمة مأخوذة من مادة (د ب ر)، ودبّر الأمر وتدبّره، أي نظر في عاقبته، وعرف الأمر تدبرًا أي بآخره، فتدبر الكلام: أي النظر في أوله وآخره ثم إعادة النظر مرة بعد مرة، ومنه قول جرير:

ولا تتقون الشر حتى يصيبكم ** ولا تعرفون الأمر إلا تدبرًا(٤)

---

(١) الإتقان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، ١٧٤/٢.

(٢) البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، ١٠٤/٢.

(٣) مناهل العرفان، محمد عبد العظيم الزرقاني، ١٠/٢.

(٤) البيت من الطويل، وهو لجرير في ديوانه ٤٧٩.

والتدبر في الأمر: التفكر فيه، وفلان ما يدري قبال الأمر من دباره، أي أوله من آخره، ويقال: فلان لو استقبل من أمره ما استدبره لهدي لوجهة أمره، أي لو علم في بدء أمره ما علمه في آخره، لاسترشد لأمره، وقال أكثم بن صيفي لبنيه: يا بني لا تتدبروا أعجاز أمور ولت صدورها(١).

ودبّرت الأمر تدبيرًا: فعلته عن فكر وروية، وتدبرته تدبرًا: نظرت في دبره، وهو عاقبته وآخره(٢).

يقول ابن القيم (رحمه الله): "وتدبر الكلام أن ينظر في أوله وآخره، ثم يعيد نظره مرة بعد مرة، ولهذا جاء على بناء التفعل، كالتجرع والتفهم والتبين"(٣).

ب) التدبر في الاصطلاح:

تدبر القرآن الكريم: بمعنى النظر، وإعمال الفكر، وتشغيل الذهن؛ بهدف التوصل إلى المعنى العام للآيات، وأهدافها، ومقاصدها، أو هو التفكر الشامل للوصول إلى أواخر دلالات الكلم، ومراميه البعيدة. والتدبر اتعاظ بالمعنى واعتبار به، وهو إدراك مغزى الآيات وما ترمي إليه، واستخراج دلالاتها وهداياتها، وامتثالها والتفاعل معها والعمل بها. فالتدبر هو غاية، لأنه باعث على الامتثال والعمل.

وبذلك فإن التدبر أخص من المعرفة التفصيلية لمعاني الآيات، فالتدبر يقتضي النظر إلى ما تصير إليه عاقبة الكلام، وهذا يدفع للعمل بما تم تدبره لاستحضار العاقبة(٤).

---

(١) لسان العرب، ابن منظور، فصل الدال المهملة، ٢٧٣/٤.

(٢) المصباح المنير، أحمد بن محمد بن علي الفيومي الحموي، مادة(د ب ر)، ١٨٩/١.

(٣) مفتاح دار السعادة، لابن القيم، ١٨٣/١.

(٤) تدبر القرآن، سليمان عمر السنيدي، ص١١.

فالتدبر من التفعل، فهو: النظر إلى دُبر الشيء، أي التأمل في دوابر الأمور المتوقعة، وما يمكن أن تؤول إليه، فهو الفهم الكلي العام، ليس الفهم التحليلي الدقيق، على أن يكون المتدبر قد سمع تفسيره الآية من أحد العلماء، أو يكون قرأ تفسيرها في كتاب تفسير، وغير ذلك. وبالطبع إذا صدر هذا التدبر من العالم المفسر، فإن خبرته تعطيه فرصة أكبر بكثير، لتعمق التدبر في الآيات، والوصول بها إلى أرقى منازل الإيمان.

ولذلك فالتفسير يغذي القوة العلمية التي يتبعها القوة الإيمانية والتطبيقة لهذا العلم، وكذلك التدبر يغذي القوة العلمية والعملية والإيمانية، فالتفسير هو وسيلة للتدبر، ومع ذلك قد يتحقق التدبر بدون الإلمام التام بقواعد التفسير وضوابطه.

وذلك أن القرآن الكريم معظمه واضح بيّن سهل وظاهر لكل الناس، يمكن فهمه والإحاطة به دون الحاجة إلى التفصيلات الدقيقة التي يتمكن منها أهل العلم، ولذلك كان تقسيم ابن عباس (رضي الله عنهما) للتفسير أنه على أربعة أوجه: "وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله"(١)، ومعظم القرآن من القسمين الأوّلين"(٢).

وهو يقصد بقوله (لا يعذر أحد بجهالته) هو ما يتبادر إلى الأذهان فهمه، فجميعنا يعلم حقيقة التوحيد في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ..﴾(٣) وإن لم يعلم التفصيلات، من مثل أن الاستثناء في(لا و إلا) يفيد الحصر، وغير ذلك، فإن هذه التفصيلات يعلمها المتخصص في التفسير.

(١) جامع البيان في تأويل القرآن، ابن جرير الطبري، ٥٨٤/٢٢.
(٢) مفاتيح تدبر القرآن، د. خالد بن عبد الكريم اللاحم، ص٢٣.
(٣) [محمد: من الآية ١٩].

وقد أجاب عن ذلك الإمام الشنقيطي (رحمه الله) في تفسيره أضواء البيان عندما قال: "اعلم أن قول بعض متأخري الأصوليين: إن تدبر هذا القرآن العظيم، وتفهمه والعمل به لا يجوز إلا للمجتهدين خاصة، وأن كل من لم يبلغ درجة الاجتهاد المطلق بشروطه المقررة عندهم التي لم يستند اشتراط كثير منها إلى دليل من كتاب ولا سنة ولا إجماع ولا قياس جلي ولا أثر عن الصحابة– قول لا مستند له من دليل شرعي أصلًا"(١).

ويمكن القول أن هذا التدبر بدون الإلمام بعلوم التفسير في الألفاظ المتبادر فهمها التي لا تحتمل إلا معنى واحد، أما ما كان غير ذلك، ويحتمل أوجهًا للتأويل، فلابد أن يتسلح بشروط وضوابط التفسير.

المخاطبون بالتفسير، والمخاطبون بالتدبر:

من خلال تعريف التفسير والتدبر، يتبين لنا أن التفسير مأمورٌ به، بحسب الحاجة إليه؛ لفهم كتاب الله تعالى بحسب الطاقة البشرية، وفق قواعد وشروط التفسير، ولذلك هو للعلماء المتخصصين، المجتهدين الذين يفتون ويبينون الأحكام الشرعية، فلا يكون مفسرًا حتى يستوفي علومًا تجعله يستقل بنفسه في معرفة مرامي النصوص وما تهدف إليه سواء من العلوم الشرعية كعلوم القرآن وأصول التفسير، كعلم الناسخ والمنسوخ، وأسباب النزول، والمحكم والمتشابه، والعام والخاص، والمطلق والمقيد، وغيرها، أو العلوم العربية، كالبلاغة، والنحو والتصريف، ومن لم يتيسر له ذلك، أو لم يكن من المتخصصين في تلك العلوم، فليرجع إلى تفاسير السلف، والعلماء المفسرين المتبحرين حتى يتسنى له فهم القرآن وتدبره والاتعاظ والعمل به.

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، ٢٥٨/٧.

ولذا فالناس فيه درجات، كما قال ابن عباس (رضي الله عنهما) في أنواع التفسير: "وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله تعالى"(١).

أما التدبر فمخاطب به من دون المفسرين من خلال الفهم المجمل للآيات، وكذا المتخصصين في العلوم الإسلامية؛ للانتفاع بالقرآن والاهتداء به، ولذلك خُوطب به الكفار والمنافقين وهم من أهل اللسان العربي الفصيح بصفة عامة، وهذا ما ساعدهم على فهم القرآن وتدبره بمقتضى سليقتهم وبما تعرفه العرب من كلامها، فالتدبر ميسر لكل الناس لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾(٢)، التي قال الطبري في تفسيرها: "ولقد سهلنا القرآن، بيناه وفصلناه للذكر، لمن أراد أن يتذكر ويعتبر ويتعظ، فهل من معتبر متعظ يتذكر بما فيه من العبر والذكر"(٣).

وكلام الله واضح المعنى لكل الناس، فهو ليس ألفاظًا غير مفهومة، بل يفهم معظمه جميع الناس، إلا ما كان من ألفاظ غريبة، فقد نزل بلسان عربي مبين، رغم معجزته وبلاغته وفصاحته، يقول الشاطبي: "فمن حيث كان القرآن معجزًا أفحم الفصحاء، وأعجز البلغاء أن يأتوا بمثله، فذلك لا يُخرجه عن كونه عربيًا جاريًا على أساليب كلام العرب، ميسرًا للفهم فيه عن الله ما أمر به وما نهى"(٤) فعلى أي وجه كان إعجازه فإن ذلك غير مانع من الوصول إلى فهمه وتعقل

(١) جامع البيان في تأويل القرآن، ابن جرير الطبري، ٥٨٤/٢٢.
(٢) [القمر: آية١٧].
(٣) جامع البيان في تأويل القرآن، ابن جرير الطبري، ٧٥/١.
(٤) الموافقات في أصول الشريعة، إبراهيم بن موسى بن محمد أبو إسحاق (الشاطبي)، ١٤٤/٤.

معانيه. ويقول الصنعاني: "حفظ الله تعالى كتابه وسنة رسوله إلى يوم التناد، بأن كثيرًا من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية لا يحتاج في معناها إلى علم النحو، وإلى علم الأصول، بل في الأفهام والطباع والعقول ما سارع به إلى معرفة المراد منها، ثم قرعها الأسماع"(١). وهذا القول بحاجة إلى تقويم؛ إذ قد يُفهم منه أنه لا حاجة لنا إلى العلوم اللغوية والنحوية لفهم القرآن، وليس الأمر كذلك، بل إن معرفة معاني الألفاظ المفردة من أوائل الطرق المعينة على فهم القرآن وتفسيره، ومعرفة هذا الفن ضروري للمفسر، وإلا فلا يحل له الإقدام على كتاب الله تعالى، ولذلك قال مالك بن أنس: ألا أوتي برجل غير عالم بلغات العرب يُفسر كتاب الله إلا جعلته نكالًا"(٢)، ولكن ربما يقصد الألفاظ البسيطة التي تحمل معانٍ متبادرة إلى الأذهان، كإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، دون التعمق مثلًا في أن لفظ الصلاة مثلًا مشترك لفظي له أكثر من معنى، ولكن المعنى المتبادر فهمه هو الصلاة بكيفيتها وأركانها وشروطها، هذا والله أعلم.

ونحو الذي قلنا ذكره الإمام الاصنعاني نفسه عندما قال: "فَإِن من قرع سَمعه قَوْله تَعَالَى: ﴿.....زز وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾(٣) يفهم مَعْنَاهُ من دون أَن يعرف أَن (مَا) كلمة شَرط، و(تقدموا) مجزوم بهَا؛ لِأَنَّهُ شَرطهَا، و(تجدوه) مجزوم بهَا؛ لِأَنَّهُ جَزَاؤُهُ، وَمثلهَا: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ ﴾(٤)، وَمثلهَا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ

(١) إرشاد النقاد إلى تيسير الاجتهاد، محمد بن إسماعيل بن محمد الصنعاني، ص ١٥٩.

(٢) أخرجه البيهقي، في شعب الإيمان، في ترك التفسير بالظن، ٥٤٣/١.

(٣) [الْبَقَرَة: من الآية ١١٠].

(٤) [آل عمرَان :من الآية٣٠]

﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠﴾[1] يفهم من الْكل مَا أُرِيد مِنْهَا من غير أَن يعرف أسرار الْعُلُوم الْعَرَبيَّة ودقائق الْقَوَاعِد الْأُصُولِيَّة"[2].

فالتدبر أخذ العظة والعبرة من الآيات وهو قد يأتي بعد الفهم المجمل للآيات، أو بعد الفهم الدقيق لدى المفسر، فهو حالة قلبية وروحية، أما التفسير فليس كل أحد قادرًا عليه، ولذلك قد يُقال: أن كل مفسر متدبر، وليس العكس.

وأما من يعتقدون صعوبة فهم القرآن الكريم، فإن ذلك من مكائد الشيطان ليُلبس عليهم، ويصرفهم عن فهم القرآن وتدبره، ومن ذلك قول ابن هبيرة (رحمه الله): "ومن مكايد الشيطان تنفيره عباد الله من تدبر القرآن، لعلمه أن الهدى واقع عند التدبر، فيقول هذه مخاطرة، حتى يقول الإنسان أنا لا أتكلم في القرآن تورعًا"[3]. والتورع أمر جيد ومطلوب، بل هو من درجات الإيمان، ولكن أن يمنعه ذلك عن الإقبال على فهم القرآن حتى للمعاني البسيطة السهلة التي يسرها الله- تعالى- لنا، فهذا غير مطلوب، ولكنه يُمسك عن القول في كلام الله متى ما كان قوله يحتمل أحد المعاني، فربما يكون قوله غير صحيح، ويكون في هذه الحالة من الذين يقولون في كلام الله بغير علم، وهذا فاسد مذموم.

وهو منهج السلف الصالح- رضوان الله عليهم- فلم يكتفوا بالحفظ فقط، بل الفهم كذلك، عن ابن مسعود (رضي الله عنه) قال: "كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن"[4].

---

(١) [النَّحل: آية٩٠].

(٢) إرشاد النقاد إلى تيسير الاجتهاد، للصنعاني، ص١٥٩.

(٣) ذيل طبقات الحنابلة، ابن رجب الحنبلي، ١٥٦/٢.

(٤) تفسير الطبري، ذكر الأخبار التي رُويت في الحضّ على العلم بتفسير القــرآن، ٨٠/١. وسنده صحيح، وهذا موقوف على ابن مسعود ولكنه مرفوع معنى، لأن ابن مسعود إنما تعلم القرآن من رسول الله (ﷺ)، فهو يحكي ما كان في ذلك العهد النبوي المنير.

قال أبو عبد الرحمن السلمي، حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن، كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما، أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي (ﷺ) عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا"[١]، ولهذا كانوا يبقون مدة في حفظ السورة، وقال أنس: كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جلّ في أعيننا "وذكر الإمام مالك أن ابن عمر أقام في حفظ سورة البقرة ثماني سنين[٢].

وقد فهم الصحابة– رضوان الله عليهم– القرآن الكريم بسليقتهم، ومعاصرتهم ومعايشتهم لرسول الله (ﷺ) وهو يفسر لهم ويبين قولًا وفعلًا، وأنه كلما بعد الزمن كلما زادت حاجتنا إلى تفسير مفصل للقرآن الكريم.

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية، ٩/١.

(٢) موطأ مالك، ك: القرآن، ب: ما جاء في القرآن، ٢٠٥/١.

المطلب الثاني
أهمية كلٍ من التفسير والتدبر

أولا: أهمية التفسير:

إن الحاجة ماسة إلى وجود العلماء المتخصصين الذين يقومون بواجب تفسير القرآن الكريم تفسيرًا علميًا صحيحًا، وفق قواعد وشروط منضبطة، وبالإحاطة بالعلوم المختلفة المساعدة على التفسير، ولذا كتب المفسرون في تفاسيرهم مقدمات عن علم التفسير وأهميته.

لذا فإن حاجة الأمة الإسلامية ماسة إلي فهم القرآن الذي هو حبل الله المتين وذكره الحكيم.

ولذا يجب الإقدام على تفسير كتاب الله، وعدم التهيب من ذلك "... وإن امتلأت نفس طالب العلم بجلالة علم التفسير وأهميته دفعه ذلك إلي مضاعفة جهده وحثه على مواصلة ليله بنهاره في البحث والدرس والتنقيب، وجعل التعب لديه راحة.. لأن السعي إلي الغايات يكون بحسب أهميتها وقيمتها»[1].

ولذا فقد أشار الإمام القرطبي (رحمه الله) أيضا إلي أهمية علم التفسير فعقد لذلك فصلًا موجزًا في مقدمة تفسيره (الجامع لأحكام القرآن) أورد فيه ما يدل على أهمية التفسير ومن ذلك ما رواه: (ورد عن إياس بن معاوية في فضل التفسير قال: مثل الذين يقرءون القرآن وهم لا يعلمون تفسيره كمثل قوم جاءهم كتاب من ملكهم ليلا وليس عندهم مصباح فتداخلهم روعة، ولا يدرون ما في الكتاب، ومثل الذي يعرف التفسير كمثل رجل جاءهم بمصباح فقرءوا ما في الكتاب)[2].

---

(١) بحوث في أصول التفسير، د. محمد لطفي الصباغ، ص٢٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، أبو بكر القرطبي ١/ ٢٦.

ومن أهمية التفسير أمر الله- تعالى- نبيه أن يقوم بمهمة التفسير والبيان ﴿... وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1]. كما دعانا إلى فهم القرآن وتفسيره وتدبره عمومًا " أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله....."، "أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها"، ذلك لأن هذا القرآن العظيم مليء بالدرر التي في حاجة لاستخراجها.

وقال الإمام الطبري (رحمه الله) مبينًا أهمية التفسير: "اعلموا عباد الله – رحمكم الله – أن أحق ما صرفت إلي علمه العناية، وبلغت في معرفته الغاية ما كان لله في العلم به رضي وللعالم إلي سبيل الرشاد هدي، وإن اجمع ذلك لباغيه كتاب الله الذي لا ريب فيه، وتنزيله الذي لا مرية فيه، الفائز بجزيل الذخر وسني الأجر تاليه، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد"[2].

أهمية التدبر:

١- إن تدبر القرآن لهو من حكم إنزال القرآن نفسه، كما في قوله تعالى: "**كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته..**"، قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي (رحمه الله) في تعليقه على هذه الآية: "وأما كون تدبر آياته من حكم إنزاله، فقد أشار إليه في بعض الآيات، بالتحضيض على تدبره، وتوبيخ من لم يتدبره، كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ وقوله تعالى:﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ وقوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ ... ﴾[3].

---

(١) [النحل: من الآية ٤٤].

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن، ابن جرير الطبري، ١٥/١.

(٣) [المؤمنون: من الآية ٦٨]

٢- التدبر والنظر في الآيات يتبعه التطبيق والممارسة والإخراج إلى حيز الواقع، وهو المقصود من تدبر القرآن، فإن التدبر لابد أن ينطلق إلى الواقع.

٣- التدبر في القرآن كان سببًا في تغيير حياة كثير من الناس، ومن ذلك كثير من الصحابة الذين أسلموا بعد سماعهم لآيات من الذكر الحكيم وتدبرهم لها. فهذا الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ فَكَانَ سَبَبُ تَوْبَتِه أَنَّهُ عَشِقَ جَارِيَةً فَوَاعَدَتْهُ لَيْلًا، فَبَيْنَمَا هُوَ يَرْتَقِي الْجُدْرَانَ إِلَيْهَا إِذْ سَمِعَ قَارِئًا يَقْرَأُ: ﴿ * أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ ... ﴾[١] فَرَجَعَ الْقَهْقَرَى وَهُوَ يَقُولُ: بَلَى وَاللَّهِ قَدْ آنَ، فَآوَاهُ اللَّيْلُ إِلَى خَرِبَةٍ وَفِيهَا جَمَاعَةٌ مِنَ السَّابِلَةِ، وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ لِبَعْضٍ: إِنَّ فُضَيْلًا يَقْطَعُ الطَّرِيقَ. فَقَالَ الْفُضَيْلُ: أَوَّاهُ! أَرَانِي بِاللَّيْلِ أَسْعَى فِي مَعَاصِي اللَّهِ، قَوْمٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَخَافُونَنِي! اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ تُبْتُ إِلَيْكَ، وَجَعَلْتُ تَوْبَتِي إِلَيْكَ جِوَارَ بَيْتِكَ الْحَرَامِ[٢].

ومعلوم أن كل من لم يشتغل بتدبر آيات هذا القرآن العظيم- أي تفهمها، وإدراك معانيها والعمل بها- فإنه مُعْرِضٌ عنها، غير متدبر لها، فيستحق الإنكار والتوبيخ المذكور في الآيات- هذا إن كان أعطاه الله فهمًا يقدر به على التدبر- وقد شكا النبي (ﷺ) إلى ربه من هجر قومه القرآن، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾[٣].

٤- تدبر القرآن من أجل الأعمال، وأفضل العبادات، قال الحافظ ابن رجب: "ومن أعظم ما يتقرب به إلى الله تعالى من النوافل كثرة تلاوة القرآن، وسماعه بتفكر وتدبر وتفهم"[٤].

---

(١) [الحديد: من الآية ١٦].

(٢) الجامع لعلوم القرآن، القرطبي، ٢٥١/١٧.

(٣) [الفرقان: آية ٣٠].

(٤) جامع العلوم والحكم، ابن رجب، ٢/ ٣٤٢.

قال ابن القيم (رحمه الله): « وبالجملة فلا شيْء أنفع للقلب من قراءَة القرآن بالتدبر والتّفَكُّر؛ فَإنّه جَامعٌ لجميع منازل السائرين، وأحوال العاملين، ومقامات العارفين، وهو الذي يُورث المحبة والشوق، وَالخوف والرجاء، والإنابة والتوكل، والرِّضَا والتفويض، وَالشكر وَالصبر، وَسَائِر الأحوال الّتِي بها حَيَاة القلب وكماله، وكذلك يزْجر عَن جميع الصِّفات والأفعال المذمومة، والتي بها فساد القلب وهلاكه و علم النّاس ما في قراءة القرآن بالتدبر، لاشتغلوا بها عن كل ما سواها، فإذا قرأهُ بتفكر حتى مر بآية وهو مُحْتَاج إليها في شفاء قلبه، كررها ولو مئَة مرّة ولو لَيْلَة، فقراءة آيَة بتفكر وتَفَهُّم خير من قراءة ختمة بغير تدبر وتَفَهُّم، وأنفع للقلب، وأدعى إلى حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن... فقراءة القرآن بالتفكر هي أصل صلاح القلب... ولهذا أنزل الله القرآن ليُتَدَبَّر ويُتَفكّر فيه، ويُعمَلَ به، لا لمجرد الإعراض عنه»[1].

(١) مفتاح دار السعادة، ابن القيم، ١٨٧/١.

المبحث الثاني

الضوابط التي تعصم من الاجتراء في فهم القرآن الكريم

وقد أطلقت هذا المبحث هذا العنوان؛ لإضفاء هيبةٍ وتعظيمٍ وإجلالٍ للقرآن الكريم، وعدم الخوض في تفسيره أو تدبره إلا بشروط ومحاذير، حتى لا نقع في ما هو محذور، فإن قال قائل: كيف ذلك؟ وقد علمنا أن تدبر القرآن الكريم ليس فقط للمتخصصين، بل يفهم بعضه ويقف عليه غير المتخصص أيضًا أو من لديه قدرًا من العلوم الدينية.

فيكون الجواب في المطالب التالية:

المطلب الأول
عن شروط التفسير

لا ريب أن من أراد أن يتصدى لتفسير القرآن فعليه استجماع الشروط المعتبرة، حتى يكون أهلًا لبيان مراد الله، ومن أولى بدهيات الشروط: صحة اعتقاد المفسر، حتى يمكن الركون إلى تفسيره، فلا يُطمأن إلى كلام الملاحدة والمبتدعة، وأهل الفرق المختلفة، الذين ينتصرون لمذهبهم؛ لأنهم يبغون الفتنة، كدأب الباطنية وغلاة الرافضة وأهل البدع قديمًا وحديثًا.

ولذلك قال الإمام السيوطي: "مَنْ أَرَادَ تَفْسِيرَ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ، طَلَبَهُ أَوَّلًا مِنَ الْقُرْآنِ، فَمَا أُجْمِلَ مِنْهُ فِي مَكَانٍ فَقَدْ فُسِّرَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ، وَمَا اخْتُصِرَ فِي مَكَانٍ فَقَدْ بُسِطَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ مِنْهُ. ...، فَإِن أَعْيَاهُ ذَلِكَ طَلَبَهُ مِنَ السُّنَّةِ فَإِنَّهَا شَارِحَةٌ لِلْقُرْآنِ وَمُوَضِّحَةٌ لَهُ. وَقَدْ قَالَ الشَّافِعِيُّ (رضي الله عنه) كُلُّ مَا حَكَمَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) فَهُوَ مِمَّا فَهِمَهُ مِنَ الْقُرْآنِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ ﴾[1] وَقَالَ (ﷺ): "أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ "[2]، يَعْنِي السنة، فإن لم يجده في السُّنَّةِ رَجَعَ إِلَى أَقْوَالِ الصَّحَابَةِ فَإِنَّهُمْ أَدْرَى بِذَلِكَ لِمَا شَاهَدُوهُ مِنَ الْقَرَائِنِ وَالْأَحْوَالِ عِنْدَ نُزُولِهِ، وَلِمَا اخْتَصُّوا بِهِ مِنَ الْفَهْمِ التَّامِّ وَالْعِلْمِ الصَّحِيحِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ"[3].

---

(١) [النساء: آية ١٠٥].

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٤١٠/٢٨، مسند المقدام بن معدي كرب، الحديث (١٧١٧٣)، إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح، غير عبد الرحمن بن أبي عوف الجُرَشي.

(٣) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ٢٠٠/٤.

وهناك من العلوم التي يجب توافرها في المفسر، حتى يتسنى له تفسير كتاب الله (ﷻ)، وقد بلغ بها السيوطي خمسة عشر علمًا، نستطيع أن نضعها في بضعة علوم أساسية، وهي:

أولًا: علوم اللغة العربية: قَالَ الزركشي فِي الْبُرْهَانِ: "وَيَحْتَاجُ الْكَاشِفُ عَنْ ذَلِكَ إِلَى مَعْرِفَةِ عِلْمِ اللُّغَةِ: أَسْمَاءً وَأَفْعَالًا وَحُرُوفًا فَالْحُرُوفُ لِقِلَّتِهَا تَكَلَّمَ النُّحَاةُ عَلَى مَعَانِيهَا فَيُؤْخَذُ ذَلِكَ مِنْ كُتُبِهِمْ وَأَمَّا الأسماء والأفعال فتأخذ مَنْ كُتُبِ عِلْمِ اللُّغَةِ وَأَكْبَرُهَا كِتَابُ ابْنِ السِّيدِ[1]. ولذا قال الإمام مجاهد- شيخ المفسرين التابعين: «لا يحلّ لأحد يؤمن بالله وباليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالما بلغات العرب»[2].

ثانيًا: علم أصول الفقه: وهو من العلوم المهمة للمفسر؛ إذ به يعرف وجه الاستدلال في استنباط الأحكام، وقد بين لنا ابن قيم الجوزية بعض القواعد الأصولية، التي تتعلق بتفسير القرآن وذلك في كتابه بدائع الفوائد.

ثالثًا: علم أصول الدين: فإن معرفة علم أصول الدين الذي هو العقيدة الصحيحة من العلوم التي يجب توافرها في المفسر، كما أن الزلل فيها مفضة إلى الخسران والهلاك، ولذا قال فيه أبو حيان: "...وهو علم صعب، إذ المزلة فيه- والعياذ بالله- مفض إلى الخسران في الدنيا والآخرة ".[3]

رابعًا: علم الأحاديث النبوية المفسرة للآيات القرآنية: وهي الأحاديث التي جاءت مفسرة ومبينة للقرآن الكريم، لذلك نجد في صحيح البخاري مثلًا كتاب عن التفسير، وليست الروايات التفسيرية في هذا الكتاب فحسب، ولكنها موجودة أيضًا في بقية الكتب من الصحيح.

---

(١) البرهان في علوم القرآن، للزركشي، ٢٩١/١.

(٢) السابق: ٢٩١/١.

(٣) البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان الأندلسي، ١٦/١.

خامسًا: علوم القرآن: لابد من التأهل بعلوم القرآن التي هي: مجموعة المباحث التي تساعد على فهم القرآن الكريم الفهم الصحيح، ولولاها يقع المفسر في الخطأ والزلل.

سادسًا: العلم بتفسير الصحابي: فإن لم نجد الفسير في القرآن ولا في السنة، فعلينا البحث في أقوال الصحابة رضوان الله عليهم، وقد قال الحاكم في المستدرك: أن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي، له حكم المرفوع، فكأنه رواه عن النبي (ﷺ)، فقال: "ليعلم طالب الحديث أن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل -عند الشيخين- حديث مسند"(١).

(١) المستدرك على الصحيحين، للحاكم (٣٠٢١)، ب: تفسير سورة الفاتحة، ٢٨٣/٢.

المطلب الثاني
شـــــروط التدبر

وليس معنى سهولة القرآن الكريم وتيسيره للفهم والتدبر، أن يكون متاحًا لأي أحد للقول في معانيه ومفاهيمه، بل لابد من ضوابط وشروط وآداب قبل القول فيه، وهي:

١) **الاستعداد النفسي للتدبر:** فلا يمكن أن يصل الإنسان إلى التدبر دون وجود الإرادة والدافع لفهم القرآن وتدبره.

٢) **الخشوع في قراءة القرآن،** أو حتى سماعه، وذلك باختيار الوقت المناسب، بأن ينصرف الشخص بقلبه عن كل ما يشغله، ويعلق ذهنه فقط بالقرآن، ومما يساعد على ذلك: استقبال القبلة عند القراءة، والحرص على الطهارة، والخشوع في الجلسة.

٣) **عدم التعجل في قراءة القرآن؛** لأن ذلك من تمام الخشوع، فالتدبر يحتاج إلى التأني في القراءة وعدم التعجل، وهو في أثناء قراءته يحاول أن يشغل ذهنه بفهم الآيات ومقاصدها بما أتاه الله من قدرة على الفهم والعلم، وخير مثال لذلك رسولنا الكريم (ﷺ)، عن أم سلمة (رضي الله عنها) قالت: "كان الرسول (ﷺ) يقطع قراءته آية آية، الحمد لله رب العالمين، ثم يقف، الرحمن الرحيم، ثم يقف"[(١)]. ومن ذلك أيضًا عن حذيفة، قال: "صليت مع النبي (ﷺ) ذات ليلة فافتتح البقرة، فقلت

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٥٨٣)، حديث أم سلمة زوج النبـــي (ﷺ)، ٤٤/٢٠٦. قَـــالَ الْبَيْهَقِيّ فِي «خلافياته: هَذَا حَدِيث صَحِيح عَلَى شَرط الشّيْخَيْنِ. وأعـــل الطّحَـــاوِيّ هَـــذَا الحَدِيث بالانقطاع. (البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواردة في الشرح الكبير، ابن الملقن، ٣/٥٥٧)

يركع بها، ثم افتتح آل عمران فقرآها، يقرأ مترسلًا إذا مر بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ"(١).

٤) **اعتبار الخطاب الإلهي موجهًا إليه:** وهو حقيقي، فالخطاب القرآني موجه إلى كل أحد منا، وهو بهذا يستشعر الآيات، ويقف عندها، ويستجيب للأوامر، ويمتنع عن النواهي، وكذلك يتعظ بقصص الأمم الماضية، إذ يُدرك قدرة الله – تعالى– وقوته، فلابد أن يستشعر أن الخطاب الإلهي موجهًا إليه بصفة خاصة ليس لشخص آخر، وفي ذلك يقول ابن القيم:" أكثر الناس لا يستشعرون بدخول الواقع تحته، وتضمنه له، ويظنونه في نوع، وفي قوم قد خلو من قبل، ولم يعقبوا وارثًا، وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن، ولعمر الله إن كان أولئك قد خلو، فقد ورثهم من هو مثلهم، أو شر منهم، أو دونهم، وتناول القرآن كتناوله لأولئك"(٢).

كما أن هناك أيضًا شروط لكمال التدبر وبلوغه درجة عالية من الدقة، ومنها:

١) **الرجوع إلى كتب التفسير المعتبرة،** فإن ذلك من كمال التدبر وتمامه، واليقين بأن تدبره كان على وجهه الصحيح، وأن ذلك يعصمه من الزلل أو الشطط، وليس من الضروري التعمق في تلك التفاسير، وهذا كما ذكرنا من كمال التدبر، وإلا ففهمه للعموميات والمعاني البسيطة، ثم يُشغل قلبه وفكره بتدبر الآيات والاتعاظ بها، بل يكفي الرجوع إلى كتب التفسير الإجمالي التي تعطي فكرة عامة عن الآيات، مما يساعد على فهم الآيات والإحاطة بها." فليس من شرط االتدبر أن يكون تفصيليًا لكل كلمة وكل حرف، بل قد يكون التدبر

(١) رواه مسلم (٧٧٢)، كتاب: الصلاة باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، ٥٣٦/١.

(٢) مدارج السالكين، محمد بن أبي بكر شمس الدين بن القيم الجوزية ، ٣٥١/١.

بإدراك المعنى الإجمالي، وعقل الكليات المرادة بالآية، ولاشك أن التدبر يكمل كلما كان العلم بالمعاني أكمل، وإن لم يكن شرط المعرفة التفصيلية للمعاني"[١].

٢) **الإحاطة باللغة العربية**، واالرجوع إلى المعاجم؛ لمعرفة معاني الكلمات، فالقرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، فلا يتحقق التدبر بدون فهم معانيه، علما بأن وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لايمكن. وليس المراد بذلك الاستغراق في كتب اللغة، وإنما فقط الإتيان بما ينفع في فهم القرآن، ومن ثم تدبره.

لذلك لابد من تحسين الاستفادة من مناهج السلف وكبار المفسرين في تدبر القرآن، والعمل على نشرها بين الناس، وتوظيف التدبر في تبني منهج الوسطية، وحماية الشباب من الانحراف الفكري والسلوكي، وتقوية إيمانهم، وتهذيب نفوسهم، وحمايتهم من الغلو والجفاء[٢].

أسباب العزوف عن تدبر القرآن:

ذكرنا من قبل أن هناك من يبتعد عن تدبر القرآن، فما الأسباب التي تمنعه من تدبر القرآن والتفكر فيه؟ في الواقع هناك أكثر من سبب لهذا الهجر، تعوق بينه وبين التدبر، وهذه الأسباب هي:

١) بسبب الخوف من الوقوع في الخطأ والقول على الله بغير علم، وربما ذلك لاختلاط المفاهيم لديه، بأن التدبر مهمة المفسرين والعلماء.

---

(١) تدبر القرآن وتعقله وتعلمه، ناصر بن سليمان العمر، http://almoslim.net/node/٨٢٩٥١، تمت مشاهدته الخميس: ٢٠٢٠/١٠/٢٢م، الساعة السادسة مساءًا

(٢) http://lakome٢.com تمت مشاهدته يوم الخميس ٢٠٢٠/٠٨/٢٧، الساعة ٨:٣٠ مساءًا

٢) **انشغال القلب:** فكثرة الانشغال بأمور الدنيا، تصرف القلب عن القرآن الكريم وتدبره، فحضور القلب الذي يكون بالممارسة والمران باستحضار الخشوع، وهو من أول خطوات التدبر.

٣) **الإصرار على المعاصي،** فهؤلاء خُتم على قلوبهم فلا يفهمون ولا يتدبرون، فهم مصرون على فهمهم الخاطيء، بدون أي محاولة للتدبر والفهم الصحيح.

٤) **الانشغال بكثرة قراءة القرآن الكريم،** فلعظم الثواب الذي أعده الله تعالى لقاريء القرآن، تجده ينشغل بختم القرآن أكثر من مره، وترك التدبر والتفكر في معاني القرآن الكريم، لذلك فهو يقرأ القرآن ولا يعمل به، وقد علمنا أن قراءة ولو جزء قليل من القرآن عن فهم وتدبر ووعي، ثم تطبيقه، أفضل من ختمه بلا فهم ووعي.

وترك تدبر القرآن هو من ترك وهجران القرآن نفسه، يقول ابن كثير في هذا الصدد: "وترك تدبره وتفهمه من هجرانه، وترك العمل به، وامتثال أوامره، واجتناب زواجره من هجرانه، والعدول عنه إلى غيره من شعر أو قول أو غناء أو لهو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره من هجرانه"(١).

كما أوضح ابن القيم أن من أنواع هجر القرآن هجر تدبره عندما قال: "هجر القرآن أنواع.....الرابع: هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه"(٢).

وهجر التدبر الذي يستهدف إعمال العقل والفكر يؤدي بالتبعية إلى ظهور العقلية التقليدية، وهي عقلية لا تنمو ولا تترعرع إلا في أجواء الجهل والتخلف الحضاري، وقد عاب القرآن الكريم التقليد بمختلف صروفه وفنونه، ذلك التقليد

(١) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر ابن كثير، ٩٩/٦.

(٢) الفوائد، ابن القيم الجوزية، ص٨٢.

الذي وقف حاجزًا بينهم وبين قبول الدعوة الإسلامية والانصياع للحق، كما في قوله تعالى:﴿...إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾(١)(٢).

كما أخبر الله (ﷻ) أن من أسباب حلول العذاب العاجل في الدنيا الإعراض عن آيات الله وتدبرها والعمل بما جاء فيها. قال تعالى:﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾(٣) فعدم تدبر القرآن الكريم من الأسباب التي تعجل الهلاك للأمم.

أما الاحتجاج بعدم القدرة على تدبره، فإنما هو تذرع واهٍ، فقد يسره الله للذكر، يقول القرطبي: "ولولا أنه سبحانه جعل في قلوب عباده من القوة على حمله ما جعلهم ليتدبروه، وليعتبروا به، وليتذكروا ما فيه من طاعته وعبادته وأداء حقوقه وفرائضه، لضعفت ولاندكت بثقله، أو لتضعضعت له، وأنى تطيقه، وهو يقول- تعالى جده- وقوله الحق: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ..﴾(٤)، فأين قوة القلوب من قوة الجبال، ولكن الله تعالى رزق عباده من القوة على حمله ما شاء أن يرزقهم فضلًا منه ورحمة"(٥).

وهؤلاء من يعتقدون صعوبة فهم القرآن، فإنه من مزالق الشيطان ومكائده للإيقاع بهم، وصرفهم عن تدبر القرآن؛ لعلمه أن الهدى إنما يكون من التدبر، ومن ذلك ما نقله ابن رجب الحنبلي، قول ابن هبيرة (رحمه الله): "ومن مكايد

---

(١) [الزخرف: من الآية ٢٢].

(٢) تدبر القرآن بين النظرية والتطبيق، د/ رقية جابر العلواني، ص٢٥.

(٣) [المؤمنون: من الآية ٦٦ إلى ٦٩].

(٤) [الحشر: آية٢١].

(٥) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ٤/١.

الشيطان تنفيره عباد الله عن تدبر القرآن؛ لعلمه أن الهدى واقع عند التدبر، فيقول هذه مخاطرة، حتى يقول الإنسان أنا لا أتكلم في القرآن تورعًا"(١).

وهكذا فإن معظم القرآن واضح ظاهر، يدرك معناه العالم المتخصص، ويدرك بعضه غير المتخصص، وفهمه وتدبره ليس بالأمر المستحيل أو الصعب الذي يمكن أن يجر إلى الاكتفاء بقراءة ألفاظه دون فهمه وفقه معانيه(٢).

(١) ذيل طبقات الحنابلة، ابن رجب الحنبلي، ١٥٦/٢.

(٢) مفاتيح تدبر القرآن والنجاح في الحياة، خالد عبد الكريم اللاحم، ص١٧-١٨. بتصرف

المبحث الثالث

نماذج من تفسير القرآن الكريم وتدبره

وينقسم إلى مطلبين، كما يلي:

المطلب الأول: نماذج من تفسير القرآن الكريم.

المطلب الثاني: وقفات تدبرية مع آيات الذكر الحكيم.

المطلب الأول
نماذج على تفسير القرآن الكريم

وفي هذا المطلب نتعرض لنماذج من تفسير القرآن الكريم، ويجب أن نعلم أن هذا التفسير من المفترض أن يلازمه تدبر الآيات والاتعاظ بها قلبًا وقالبًا.

-تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢﴾[1].

قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في الذي أخبر -تعالى ذكره- عنه أنه قال هذا القول. أعني: "**الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم**"، الآية.

فقال بعضهم: هذا فصلُ القضاء من الله بين إبراهيم خليله (ﷺ)، وبين من حاجّه من قومه من أهل الشرك بالله، إذ قال لهم إبراهيم: "وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانًا، فأيّ الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون"؟ فقال الله تعالى ذكره، فاصلا بينه وبينهم: الذين صدَّقوا الله وأخلصُوا له العبادة، ولم يخلطوا عبادتهم إياه وتصديقهم له بظلم

(١) [سورة الأنعام: آية ٨٢].

يعني: بشرك. ولم يشركوا في عبادته شيئًا، ثم جعلوا عبادتهم لله خالصًا، أحقّ بالأمن من عقابه، من الذين يشركون في عبادتهم إياه الأوثان والأصنامَ، فإنهم الخائفون من عقابه، مكروه عبادتهم، أمَّا في عاجل الدنيا فإنهم وجِلون من حلول سخَط الله بهم، وأما في الآخرة فإنهم الموقنون بأليم عذابِ الله[1].

وقد أُشكل عليهم معنى الظلم، روى البخاري ومسلم، عن عبد الله بن مسعود (ﷺ) قال: لما نزلت: "الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم..."[2] شقّ ذلك على المسلمين، وقالوا: أينا لا يظلم نفسه؟ فقال رسول الله (ﷺ): ليس ذلك، إنما هو الشرك، ألم تسمعوا قول لقمان لابنه وهو يعظه: ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣ ﴾[3].

- تفسير قوله تعالى: ﴿ لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ١٢٣ ﴾[4].

روى مسلم والترمذي والنسائي، عن أبي هريرة (ﷺ) قال: "لما نزل قول الله تعالى: ﴿ لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ.... ﴾ شقّ ذلك على المسلمين، وبلغت منهم حدًا كبيرًا، فشكوا ذلك إلى رسول الله (ﷺ)، فقال: "سدِّدوا وقاربوا، فإن في كل ما أصاب المسلم كفارة، حتى الشوكة يشاكها، والنكبة ينكبها"[5].

(١) جامع البيان في تأويل القرآن، ابن جرير الطبري، ٤٩٢/١١.

(٢) [الأنعام: آية ٨٢].

(٣) صحيح البخاري، (٣٤٢٩)، ب: قوله تعالى: "ولقد آتينا لقمان الحكمة"، ١٦٣/٤.

(٤) [سورة النساء: آية ١٢٣].

(٥) التفسير من سنن سعيد بن منصور (٦٩٤)، سورة النساء، ١٣٧٦/٤.

فقد أصاب الصحابة- رضوان الله عليهم- هم وحزن كبير بسبب تلك الآية؛ إذ فهموا أنهم مجازون في كل سوء، ولا مجال لرحمة الله ومغفرته التي وسعت كل شيء. حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ نُمَيْرٍ، قَالَ: أَخْبَرَنَا إِسْمَاعِيلُ، عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ أَبِي زُهَيْرٍ، قَالَ: أخبِرْتُ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ الصَّلاحُ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ فَكُلُّ سُوءٍ عَمِلْنَا جُزِينَا بِهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (ﷺ): "غَفَرَ اللهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ، أَلَسْتَ تَمْرَضُ؟ أَلَسْتَ تَنْصَبُ؟ أَلَسْتَ تَحْزَنُ؟ أَلَسْتَ تُصِيبُكَ اللَّأْوَاءُ؟ "قَالَ: بَلَى. قَالَ: "فَهُوَ مَا تُجْزَوْنَ بِهِ"[1].

فقد بين لهم النبي (ﷺ) أن الآية تحمل الخير والبشارة لهم، بأن كل ما يصيب الإنسان من هم أو نصب أو تعب إنما هو من نوع المجازاة في الدنيا، فيكون كفارة عن الذنوب في الآخرة. وقد وردت في الآية العديد من الروايات التي صحح بها النبي (ﷺ) واللبث الذي وقعوا فيه.

- تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾[2].

وتفسير الآيات: أي إذا كلمتموه فلا تجاوزوا أصواتكم عن صوته، وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ، ولا تبلغوا به الجهر الدائر بينكم بل اجعلوا أصواتكم أخفض من صوته؛ محاماة على الترحيب ومراعاة للأدب. وقيل معناه: ولا تخاطبوه باسمه وكنيته كما يخاطب بعضكم بعضًا، وخاطبوه

(١) مسند أحمد (٦٨)، مسند أبي بكر الصديق، ١/٢٣٠. حديث صحيح بطرقه وشواهده، وهذا إسناد ضعيف لانقطاعه بين أبي بكر بن أبي زهير وبين أبي بكر الصديق، ثم إن أبا بكر بن أبي زهير مستور لم يذكر بجرح ولا تعديل.

(٢) [سورة الحجرات: آية ٢].

بالنبي والرسول، وتكرير النداء؛ لاستدعاء مزيد الاستبصار والمبالغة في الاتعاظ والدلالة على استقلال المنادى له وزيادة الاهتمام به. "أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ": كراهة أن تحبط فيكون علة للنهي(١).

- حَدَّثَنَا يَسَرَةُ بْنُ صَفْوَانَ بْنِ جَمِيلٍ اللَّخْمِيُّ، حَدَّثَنَا نَافِعُ بْنُ عُمَرَ، عَنِ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ، قَالَ: "كَادَ الخَيِّرَانِ أَنْ يَهْلِكَا أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ (رضي الله عنهما)، رَفَعَا أَصْوَاتَهُمَا عِنْدَ النَّبِيِّ (ﷺ) حِينَ قَدِمَ عَلَيْهِ رَكْبُ بَنِي تَمِيمٍ، فَأَشَارَ أَحَدُهُمَا بِالأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ أَخِي بَنِي مُجَاشِعٍ، وَأَشَارَ الآخَرُ بِرَجُلٍ آخَرَ- قَالَ نَافِعٌ لَا أَحْفَظُ اسْمَهُ - فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ لِعُمَرَ: مَا أَرَدْتَ إِلَّا خِلَافِي، قَالَ: مَا أَرَدْتُ خِلَافَكَ فَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمَا فِي ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ} الآيَةَ.(٢)

فسبب النزول طريق قوي في فهم الآيات؛ فقد فهم الصحابي قيس بن ثابت (رضي الله عنه) أنه المقصود بالآية، وأنه من أهل النار، فحبس نفسه بالبيت، كما سيأتي.

-تفسير الآيات: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسۡطُورٖ ۝٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ۝٣ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ۝٥ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ۝٧﴾(٣).

هذه الآيات من سورة الطور، فقد أقسم ربنا (سبحانه وتعالى) فيها بالطور، وهو الجبل، وكل جبل، فهو طور بلغة النبط، ويقال: بلغة سريانية، ولكن عني به الجبل الذي كلم الله- تعالى- عليه موسى (عليه السلام) بمدين. كما أقسم بالكتاب المسطور يعني: في اللوح المحفوظ. والرق المنشور: يقال أعمال بني آدم في رق منشور، يعني: في صحيفة منشورة، يعني: مفتوحًا يقرءونه. ويقال: كِتابٍ

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبو سعيد بن محمد الشيرازي البيضاوي، ١٣٣/٥.

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٤٥)، كتاب التفسير باب: لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي، ١٣٧/٦.

(٣) [سورة الطور: من الآية١-٧].

مَسْطُورٍ يعني: القرآن. فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ يعني: المصاحف. ويقال: في اللوح المحفوظ.

ثم قال: وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ وهو في السماء السابعة. هو بيت في السماء حيال الكعبة، يزوره كل يوم سبعون ألف ملك، ولا يعودون إليه إلى يَوْمِ القيامة. قال بعضهم: بناه الملائكة قبل أن يخلق آدم (عليه السلام) وقال بعضهم: هو البيت الذي بناه آدم بمكة، فرفعه الله تعالى في أيام الطوفان إلى السماء بحيال الكعبة. ثم قال: وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ يعني: السماء المرتفعة من الأرض مقدار خمسمائة عام وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ يعني: البحر الممتلئ تحت العرش، وهو بحر مكفوف. يقال له: الحيوان يحمي الله به الموتى يوم القيامة، فأقسم الله تعالى بهذه الأشياء إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ لَواقِعٌ، يعني: العذاب الذي أوقع الكفار فهو كائن مَّا لَهُ مِنْ دافِعٍ يعني: لا يقدر أحد أن يرفع عنهم العذاب[1].

(١) بحر العلوم، أبي الليث نصر بن محمد السمرقندي، ٣/٣٥٠-٣٥١.

المطلب الثاني
وقفات تدبرية مع آيات الذكر الحكيم

لقد عاش سلفنا الصالح مع القرآن الكريم، فملأ عليهم حياتهم، وامتلك عليهم وجدانهم، فكانت بيوتهم عامرة بالقرآن، وطبقوه والتزموا به في حياتهم، وسما بهم إلى أعلى الدرجات، أي أنهم تدبروه وتفكروه وأخذوا منه العظة والعبرة، فكانوا دعاةً إلى الله بأقوالهم وأفعالهم. يقول الحسن البصري: " إن من كان قبلكم رآه (أي القرآن) رسائل من ربهم، فكانوا يتدبرونها بالليل، وينفذونها بالنهار"(١). فكانوا- رضوان الله عليهم- شديدي التأثر بالقرآن، فتقشعر منه أبدانهم، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ﴾(٢)، وكانوا- رضوان الله عليهم- يرون أن قليلًا من القراءة للقرآن، ولكن بفهم وتدبر، خير من كثير ولكن بغفلة وشرود وعدم فهم، يقول عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما): "لأن أقرأ البقرة وآل عمران أرتلهما وأتدبرهما أحب إلي من أن أقرأ القرآن كله هذرمة"(٣).

والأمثلة العملية على حال سلفنا الصالح القرآن أكثر من أن تُحصى، ولكن مع ذلك سنذكر البعض منها؛ للبيان والتبيين، ولأخذ العظة والعبرة والقدوة، ومعرفة منهج سلفنا الصالح مع القرآن، وكذلك حتى يتبين لنا الفرق بينه وبين التفسير، وأنه على الرغم من عدم حاجة التدبر إلى كل العلوم الدقيقة التي يحتاجها التفسير (وإن احتاج البعض منها) إلا أنه مع ذلك أدق من التفسير، بل به يظهر أثر التفسير ودوره في فهم القرآن.

---

(١) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، ٢/٢٧٥.

(٢) [الأنفال: آية ٢]

(٣) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، ١/٢٧٧.

فهذا أبو بكر الصديق (ﷺ) الذي كان شديد التأثر بالقرآن، لا يملك نفسه، فيغلبه البكاء، ومن ذلك ما جاء في الصحيح أنه لما اشتد مرض رسول الله (ﷺ) قال: " مروا أبا بكر فليصل بالناس، فقالت أم المؤمنين عائشة (ﷺ): "إن أبا بكر رجل رقيق إذا قرأ غلبه عليه البكاء"(١).

– وقد مر بنا في مبحث سابق تفسيره لمعنى المجازاة بالسوء، وأنه عندما نزلت الآية " ليس بأمانيكم ولا أماني أهل لكتاب من يعمل سوءًا يجز به" لكأنما أصابه انفصام في ظهره، وقال: جاءت قاصمة الظهر، حتى بين له النبي (ﷺ) المراد من الآية، وأن هذا الأمر لم يكن ليحدث لولا روعه وهلعه وإحساسه العميق بخطر المُصاب، (ﷺ) وأرضاه.

– ما أصاب الصحابة من هلع وخوف عند نزول قوله تعالى: " الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم".

فقد فهم الصحابة– رضوان الله عليهم– الظلم في الآية، بأنه الذنوب والمعاصي، وهم يعلمون أنه لن ينجو أحد من الذنوب، وأنهم غير معصومين، فلابد وأن يقعوا فيه، فيكونوا هالكين، ولكن جاء الرسول (ﷺ) ليطمأنهم، ويزيل الخوف عن نفوسهم، بأن الظلم في الآية أكبر من مجرد الذنوب والمعاصي، وإنما هو الشرك بالله.

وهذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (ﷺ) الذي جاء في ترجمته عن هشام بن الحسن، قال: "كان عمر بن الخطاب يمر بالآية في ورده، فتخنقه، فيبكي، حتى يسقط، ثم يلزم بيته، حتى يُعاد يحسبونه مريضًا"(٢).

---

(١) أخرجه البخاري، (٦٨٢)، كتاب العلم با ب: أهل العلم والافضل أحق بالإمامة، ١٣٧/١.

(٢) حلية الأولياء، لأبي نعيم، ٥١/١.

قال الحافظ أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن داود، عن صالح المري، عن جعفر بن زيد العبدي، قال: خرج عمر يعس بالمدينة ذات ليلة، فمر بدار رجل من المسلمين، فوافقه قائمًا يصلي. فوقف يستمع قراءته، فقرأ {**وَالطُّورِ**} حتى بلَغ: {**إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ (٨)**}[(١)]، قال: قسمٌ ورب الكعبة حق، فنزل عن حماره، واستند إلى حائط، فمكث مليًا، ثم رجع إلى منزله، فمكث شهرًا يعوده االناس لا يدرون ما مرضه"[(٢)].(ﷺ) فوقوفه على الحائط، واستناده عليه ما كان سيحدث لولا فكره وتدبره واتعاظه بالآيات التي سمعها. يقول بعضهم: ووقع السورة من قلب وحس ووجدان الخليفة عمر بن الخطاب (ﷺ) موقعها الخاص، بقوله: وعمر (ﷺ) سمع السورة قبل ذلك، وقرأها، وصلى بها، فقد كان رسول الله (ﷺ) يصلى بها المغرب، وعمر يعلم، ويتأسى. ولكنها في تلك الليلة صادفت منه قلبًا مكشوفًا، وحسًا مفتوحًا، فنفذت إليه وفعلت به هذا الذي فعلت، حين وصلت إليه بثقلها وعنفها وقوتها وحقيقتها، التي تصل إلى القلوب في لحظات خاصة، فتتخللها وتتعمقها، في لمسة مباشرة كهذه اللمسة، تلقى فيها القلب الآية من مصدرها الأول، كما تلقاها قلب رسول الله (ﷺ) فأطاقها؛ لأنه تهيأ لتلقيها

هكذا القرآن، فكلما نقرأه بخشوع وفهم وتدبر، تنفتح لنا فيه الكشوفات، وتتجلي أمامنا معاني وحقائق كنا في غفلة عنها، فنشعر أنه حقًا رسائل من الله لنا.

---

(١) [سورة الطور: الآيات١-٧].

(٢) مسند الفاروق، لابن كثير (٨٦٨)، ب: ومن سورة الطور، ٥٨٦/٢. وإسناده ضـــعيف؛ لضعف صالح المُرِّي، وانقطاعه بين جعفر بن زيد وعمر.

وهذا ثابت بن قيس بن شمَّاس-خطيب الأنصار- كان من عادته أن يرفع صوته أثناء الكلام، فلما نزلت هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ...﴾ [1] جلس ثابت بن قيس في بيته، وقال: "أنا من أهل النار"، واحتبس عن النبي (ﷺ) فسأل النبي (ﷺ) سعد بن معاذ، فقال: "يا أبا عمرو: ما شأن ثابت، أشتكى؟! فقال سعد: إنه لجاري، وما علمت له بشكوى. قال: فأتاه سعد، فذكر له قول رسول الله (ﷺ) فقال ثابت: أنزلت هذه الآية، ولقد علمتم أني من أرفعكم صوتًا على رسول الله (ﷺ) فأنا من أهل النار، فذكر ذلك سعد للنبي (ﷺ) فقال رسول الله (ﷺ): بل هو من أهل الجنة"[2].

فانظر، إلى خوفه وتورعه لدرجة احتباسه في بيته تحرجًا من لقاء النبي (ﷺ) ولخوفه من أن يكون من أهل النار.

كذلك فالقرآن الكريم له أثره على سلفنا الصالح في البذل والعطاء، ونرى كثيرًا من الآيات التي تدعونا إلى الإنفاق، فلا يتوانون في بذل الغالي والنفيس امتثالًا لأوامر الله تعالى ورسوله. عن أنس قال: "لما أنزلت هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ٩٢﴾[3] قام أبو طلحة إلى رسول الله (ﷺ) فقال: يا رسول الله، إن الله (ﷻ) يقول: "لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون"، وإن أحب أموالي إليَّ ببرحاء، وإنها صدقة لله، أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها يارسول الله حيث أراك الله. قال: فقال

(١) [الحجرات: من الآية ٢].

(٢) أخرجه مسلم كتاب: الإيمان، باب مخافة المؤمن أن يحبط عمله، رقم ٥٢ ١/١١٠.

(٣) [آل عمران: ٩٢].

رسول الله (ﷺ): (بَخْ[1]، ذلك مال رابح، وقد سمعت ما قلت، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين)، فقال أبو طلحة: أَفْعَلُ يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه"[2].

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على الإلوهية والوحدانية لله –تعالى– بالنظر في الكون، والتأمل في خلق الله وخلق أنفسنا.

إلى غير ذلك من الأخبار والآثار عن السلف من الصحابة والتابعين وحالهم مع القرآن، فماذا فعلنا نحن؟ هل نتلو القرآن حق تلاوته؟ هل فهمنا خطاب الله وما أنزل في كتابه المبين؟ هل تدبرنا آيات القرآن الكريم؟ هل خشعنا للذكر الحكيم؟

نسأل الله تعالى أن يجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وجلاء أحزاننا، وذهاب همومنا وغمومنا. اللهم آمين يارب العالمين.

(١) بخُ: كلمة تقال عند الإعجاب بالشيء، يخفف ويثقل، ويقال: بَخْ بَخْ لهذا كرمًا فوق الكرم. العين، للخليل بن أحمد الفراهيدي، ب: الخاء والباء، ١٤٦/٤.

(٢) أخرجه البخاري كتاب الزكاة. باب: الزكاة على الأقارب (١٤٦١) ١١٩/٢.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على رسول الله وصحابته والتابعين له بإحسان، ثم أما بعد.....

فقد كان هذا الموضوع عن تفسير القرآن العظيم وفهمه والإحاطة به، والفرق بينه وبين تدبره، وتدبر القرآن وفهمه وتفسيره لهو المقصود الأعظم للقرآن الكريم، والذي من أجله أنزل، وهو القائل سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ وتفسير القرآن لابد فيه من تحصيل علوم عدة، فليس كل أحد فهم القرآن يكون مفسرًا، فهناك ضوابط وشروط وضعها علماؤنا الأجلاء لمن يريد أن يتصدى للتفسير، بينما التدبر هو عبارة عن عملية قلبية تسيطر على الشخص وتملك عليه وجدانه ومشاعره، وتظهر على سلوكه، فيأخذ العظة والعبرة من وراء ذلك، ولكن لابد حتى يصل إلى ذلك الشعور أن يفهم الآيات، ويدركها، ويحيط بها.

وهذا هو نهج سلفنا الصالح، الذين لم يكتفوا بحفظ القرآن، بل سعوا إلى فهمه وتطبيقه، وملك عليهم وجدانهم، وكان هو كل حياتهم، فكانوا مفسرين متدبرين. وبالتدبر نصل إلى معرفة الله والإيمان به حق الإيمان، والترقي في مراتب الإيمان.

ولذا فإنه لا ذريعة لأولئك الذين يبتعدون عن تدبر القرآن والتفكر فيه خشية عدم فهمه، والوقوع في الخطأ، فإن القرآن العظيم مفهوم بمعناه العام الإجمالي، فهو ميسر للذكر لكل الناس، أما التفسير فإنه ليس لكل أحد القول فيه، ولذلك كانت طرق التفسير: التفسير بالمأثور، والتفسير بالرأي. والأخير منهما أجازه البعض، ورفضه البعض الآخر، ومن أجازه فأجازه بشروطه. ويتضح لنا الفرق

بين التفسير والتدبر بعرض نماذج من التفسير، ووقفات تدبرية مع آيات الذكر الحكيم.

ولذا يجب علينا عدم التهيب من الإقبال على القرآن الكريم، بقراءته وسماعه والتفكر والتدبر في آياته، وإلا، فأين نحن من سلفنا الصالح (رضوان الله عليهم) الذين عاشوا مع القرآن وتعايشوا معه قلبًا وقالبًا، وحتى نستطيع أن نستخرج كنوزه ودرره.

هذا، وإن هذا لهو جهد المقل، وبضاعته المزجاة، فإن الكلام في القرآن الكريم بحر زاخر لا ينضب، ولا تنقضي عجائبه، والكلام في تفسير القرآن وتدبره كثير، وقد أُلفت فيه مؤلفات عدة، ولكنني في هذه الوريقات اكتفيت بما يغطي الجزئية التي أرغب في الإلمام والإحاطة بها.

فما كان من توفيق فمن الله وحده، وما كان من خطأ وقصور فمني ومن الشيطان، وعلى الله توكلت وإليه أنيب.

المَرَاجِعُ وَ المَصَادِرُ

- إبراهيم مصطفى وآخرون، *المعجم الوسيط*، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، دار الدعوة.
- ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين، *تفسير القرآن الكريم*، ١٤١٠هـ، ط١، بيروت، دار ومكتبة الهلال.
- ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م، *مدارج السالكين*، ط٣، بيروت، دار الكتاب العربي.
- ابن أنس، مالك بن أنس بن عامر الأصبحي، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٥م، *موطأ الإمام مالك*، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
- ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد الشيباني، ١٤١٦هـ، ١٩٩٥م، *مسند الإمام أحمد بن حنبل*، ط١، القاهرة، دار الحديث.
- ابن رجب، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م، *جامع العلوم والحكم*، ط٧، بيروت، مؤسسة الرسالة.
- ابن عطيه، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام، ١٤٢٢هـ، *المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز*، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية.
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي البصري، ١٤١٩هـ، *تفسير ابن كثير*، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية.
- ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين، ١٤١٤هـ، *لسان العرب*، ط٣، بيروت، دار صادر.

- أبو الحسين، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٧م، معجم *مقاييس اللغة*، دار الفكر.
- أبو العباس، أحمد بن على الفيومي الحموي، *المصباح المنير*، بيروت، دار المكتبة العلمية.
- أبو المعالي، محمد بن إبراهيم بن إسحاق السلمي، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م، *كشف المناهج والتناقيح في تخريج أحاديث المصابيح*، ط١، بيروت، الدار العربية للموسوعات.
- أبو جعفر الطبري، محمد بن جرير بن يزيد، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م، *جامع البيان في تأويل القرآن*، دار هجر.
- البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله الجعفي، ١٤٢٢هـ، *صحيح البخاري*، ط١، دار طظق النجاة.
- تدبر القرآن وتعقله وتعلمه، ناصر بن سليمان العمر، http://almoslim.net/node/٨٢٩٥١، تمت مشاهدته الخميس: ٢٠٢٠/١٠/٢٢م، الساعة السادسة مساءًا
- تقي الدين، عبد الغني بن عبد الواحد بن علي المقدسي، ١٤١٦هـ، ١٩٩٥م، *الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر*، ط١، دا السلف.
- الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ابن القيم، ١٤٣٢هـ، *مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة*، مكة المكرمة، دار عالم الفوائد.
- الزرقاني، محمد عبد العظيم، *مناهل العرفان في علوم القرآن*، ط٣، القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.
- الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر،١٣٧٦هـ، ١٩٥٧م، *البرهان في علوم القرآن*، ط١، القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.

• سرحان، عبد الله عبد الغني، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩، *التدبر وعلاقته بمصطلحات التأويل والاستنباط والفهم والتفسير، دراسة بلاغية تحليلية على آيات من الذكر الحكيم*، الرياض.

• السلامي، زين الدين عبد ارحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٥م، ذيل طبقات الحنابلة، ط١، الرياض، مكتبة العبيكان.

• السنيدي، سليمان عمر،١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م، *تدبر القرآن*، ط٢، الرياض، سلسلة تصدر عن مجلة البيان.

• السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين، ١٣٩٤هـ، ١٩٧٤م، *الإتقان في علوم القرآن*، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

• الشاطبي، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي، ١٤١٧هـ، ١٩٧٧م، *الموافقات في أصول الشريعة*، ط١، دار ابن عفان.

• الشافعي، أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس، ١٣٥٨هـ، ١٩٨٠م، *الرسالة*، مصر، مكتبة الحلبي.

• الصباغ، محمد لطفي، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م، *بحوث في أصول التفسير*، ط١، بيروت، المكتب الإسلامي.

• الصنعاني، محمد بن إسماعيل بن صلاح الحسني الكحلاني، ١٤٠٥هـ، *إرشاد النقاد إلى تيسير الاجتهاد*، ط١، الكويت، الدار السلفية.

• العلواني، رقيه طه جابر، ٢٠٠٨م، *تدبر القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق*.

• القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أبي بكرالأنصاري، ١٣٨٤هـ، ١٩٦٤م، *الجامع لأحكام القرآن*، ط٢، القاهرة، دار الكتب المصرية.

• اللاحم، خالد عبد الكريم محمد، ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م، مفاتيح تدبر القرآن والنجاح في الحياة، ط٢، الرياض، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية.

• الميداني، عبد الرحمن حسن حنبكة، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م، قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله (ﷻ)، ط١، بيروت، دمشق، دار القلم.
• النيسابوري، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله، ١٤١١هـ، ١٩٩٠م، المستدرك على الصحيحين، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الملخص باللغة العربية	٢٢٣٩
الملخص باللغة الإنجليزية	٢٢٤٠
المقدمة	٢٢٤١
المبحث الأول: التعريف بالتفسير والتدبر وأهمية كلٍ منهما	٢٢٤٧
المطلب الأول: التعريف بالتفسير والتدبر لغة واصطلاحًا	٢٢٤٧
المطلب الثاني: أهمية كلٍ من التفسير والتدبر	٢٢٥٦
المبحث الثاني: الضوابط التي تعصم من الاجتراء في فهم القرآن الكريم	٢٢٦٠
المطلب الأول: عن شروط التفسير	٢٢٦١
المطلب الثاني: شروط التدبر	٢٢٦٤
المبحث الثالث: نماذج من تفسير القرآن الكريم وتدبره	٢٢٧٠
المطلب الأول: نماذج على تفسير القرآن الكريم	٢٢٧٠
المطلب الثاني: وقفات تدبرية مع آيات الذكر الحكيم	٢٢٧٥
الخاتمة	٢٢٨٠
المصادر والمراجع	٢٢٨٢
فهرس الموضوعات	٢٢٨٦